تحوّلات الخطاب النقدي العربي المعاصر من نقدٍ أدبي إلى نقدٍ ثقافي
قراءة في تجربة عبد الله الغذامي النقدية أنموذجًا

The transform from literary criticism to cultural criticism in contemporary Arab critical discourse - A reading of Abdullah Al-Ghadami's critical experience as a model

شول فاطمة الزهراء [*1]

[1] المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمن، الأغواط (الجزائر)

fatimazouhra@ens-lagh.dz

زليخة ياحي

جامعة الجزائر 2، (الجزائر)

zoulikhay2014@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/02 تاريخ القبول: 2023/05/04 النشر:2023/05/04

ملخص:

عرف النقد الغربي/العربي عدّة تحوّلات وتوجّهات نقدية جديدة مؤخّرًا، خصوصًا بعدما أقرّت به مناهج ما بعد الحداثة من انفتاحٍ وتسامحٍ وتحاورٍ بين العلوم والأنظمة المتعدّدة والمتقاربة من أجل تغطية جميع جوانب النصوص الأدبية وبناها السطحية والعميقة، جاءت من أجل تجاوز الإشكال الذي وقع فيه التخصّص/ المنهج الواحد؛ من بين المناهج ما بعد البنيوية: النقد الثقافي باعتباره منهجًا تركيبًا بامتياز يجمع بين عدّة مناهج سياقية ونسقية في تحليله للخطاب الأدبي من جهة، ويكشف عن التقاطع الموجود داخله مع معارفٍ وحقولٍ إنسانية تلاقحت وانصهرت ليولد خطاب ثقافي جديد _بخصوصياته المغايرة_ بديلًا عن الخطاب الأدبي. في ضوء ما سبق، تسعى هذه الورقة البحثية إلى التعريف بالنقد الثقافي، ونظام اشتغاله في الساحة النقدية العربية؛ خصوصًا تجلّياته واستراتيجيته التحليلية للنصوص الأدبية عند "عبد الله الغذامي" باعتباره أوّل من دعا إلى العمل به عربيًا.

كلمات مفتاحية: نقد ثقافي.، عبد الله غذامي.، نقد أدبي.، نقد معاصر.، ما بعد الحداثة.

Abstract:

Cultural criticism, as a post-structuralist approach par excellence, combines several contextual and systemic approaches in its analysis of literary discourse on the one hand, and reveals the intersection within it with human knowledge and fields that have fused to generate a new cultural discourse with its various peculiarities as an alternative to literary discourse on the other. Recently, Western/Arab criticism has seen several transformations and new critical trends, particularly since the postmodern curricula of openness, tolerance, and dialogue between sciences and multiple and converging

systems in order to cover all aspects of literary texts and their superficial and deep structures, which came to overcome the problem of specialization/one curriculum.
.Keyword; Cultural Criticism, Alghudhami, Literary Criticism, Contemporary Criticism, Postmodernism.

*المؤلف المرسل

. مقدمة :

من المعلوم أنّ النقد عمومًا مرّ بعدّة مراحل في تحليله للخطابات الأدبية، نستطيع حصرها _إجمالًا_ في مرحلتين:

أ/-**المرحلة الأولى** مرحلة **النقد البنيوي والنصّي** أو كما يسميها النقاد عصر النظرية الأدبية الخالصة/العلم الخالص/ الثقافة الخالصة؛ ويُقصد بذلك البنيوية اللّسانية والسّيميائيات، والشعرية.

ب/-**المرحلة الثانية** وهي مرحلة **ما بعد البنيوية** /ما بعد الحداثة/ الدراسات ما بعد الكولونيالية/الماركسية الجديدة والتاريخانية الجديدة... هذه المرحلة –بكلّ اتّجاهاتها المذكورة سلفًا_ جاءت من أجل إكمال ما وقعت فيه المناهج النسقية من نقص وثغرات بسبب التركيز على النصّ ولا شيء غير النصّ. وهذا ما جعلها تغفل عدّة جوانب مهمّة في تحليل الخطاب؛ وهي الجوانب السّياقية التي تدعّم التأويل مثل: المتلقّي وسيرة الكاتب والبيئة ووضع المجتمع وأديولوجيته. مما جعلها تعيد النظر مجدّدًا في سياق النصّ باعتباره آلية مهمّة في العملية القرائية للخطاب الأدبي.

والنقد الثقافي باعتباره أحدث التوجّهات النّقديّة والمعرفيّة التي عرفتها السّاحة النّقدية الغربية مع نهايات القرن الماضي؛ تأثّر به الدارسون العرب وحاولوا فهم مصطلحاته وآليات اشتغاله مثل: دراسة عبد الله الغذامي الموسومة بـ:" النّقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية" 2000، والّتي عُدّت أوّل محاولة عربية صريحة تتبنّى نظرية النقد الثقافي، جاءت من أجل هدم معالم النقد الأدبي والبلاغة وتجاوز مقولاتهما، ثمّ توالت الدّراسات في السّاحة النقدية العربية في تطبيق مقولات النقد الثقافي في قراءتهم الثقافية للنصوص الأدبية والكشف عن أنساقها الثقافية المضمرة.

و لا بدّ أن نشير في البداية إلى أنّ فكرة النّقد الثقافي لديه لم تظهر دفعةً واحدة في كتابه المذكور سلفًا؛ بل هذه الفكرة نجدها مبثوثةً في معظم مؤلفاته النقدية بدءًا من كتابه "الخطيئة والتكفير" الّذي حاول فيه تطويع هذا المصطلح الغربي بما يتناسب مع خصوصية النصّ الأدبي العربيّ _ خاصّة الشّعر_ وهو معروف بكثرة اطلاعه على

التّراث النّقدي العربيّ والإبداعي الّذي شكّل في مختلف دراساته النقدية مخزونًا معرفيًّا استند إليه لقراءته قراءةً حديثة تنقّب وتنتقد لاستكشاف مدلولات مختلفة، كانت حتّى زمن قريب خافية على سواه من النقد المحدثين على حدّ قول (صيداوي، 2007)

انطلقنا في هذه المداخلة من عدّة إشكاليات ألا وهي:

- ما المقصود بالنّقد الثقافي عامة وعند الغذامي على وجه الخصوص؟ ما نظام اشتغاله ومصطلحاته وآلياته الإجرائية؟
- هل مشروع عبد الله الغذامي جاء من أجل البحث عن جماليات النص أم عن قبحياته من خلال فهمنا لمراده؟
- ماذا يريد الغذامي من فلسفته التحليلية للأنساق المضمرة داخل الخطاب. وما رأي النقاد فيه؟

1. نشأة النقد الثقافي:

قبل أن نعرّج إلى مفهوم النقد الثقافي وغاياته، لا بدّ لنا أن نشير إلى نشأته عند الغرب وخصوصًا بعد ظهور المحاولة الجادة والممنهجة نظريًا وتطبيقيًا في التّسعينيات عند **"فنسان ليتش"** في كتابه الموسوم بـ **"النقد الثقافي: نظرية الأدب لما بعد الحداثة"** حينما دعا إلى ضرورة اللّجوء لنقد ثقافي ما بعد البنيوي وعدم حصره بالممارسات الأدبية، وجعل في دراسته للخطاب الأدبي تكون في ضوء التاريخ والسوسيولوجيا والسّياسة والمؤسساتية ومناهج النقد الأدبي، معتمدًا على استقراء التاريخ والتأويل التفكيكي والمناهج الأدبية لتعرية الخطابات وتقويم أنظمتها التواصلية، ورصد الأبعاد الأيديولوجية الكامنة وراء النص (بوجلال ، 2016، صفحة 89).

ولا يكتفي بذلك بل عمل على نقد المؤسّسة الأدبية التي توجّه أذواق القرّاء لما ترتضيه من نصوص بغية التأثير على طريقة التلقي والاستجابة لدى القارئ. وقد تأثّر بميشال فوكو وجيل دولوز وليوتار، ويضيف لجاك دريدا مصطلح التأسيس إلى جانب مصطلح التقويض (بوجلال ، 2016، صفحة 89).

ونشير إلى أنّ ملامح هذا المصطلح ظهر سنة **1964** مع مركز **"الدراسات الثقافية المعاصرة لبرمنجهام"** التي استندت دراساتهم النقدية/ الثقافية على أربعة مصادر: تاريخية وفلسفية وسوسيولوجية وأدبية نقدية. لكن الظهور الفعلي للمصطلح كان في الثمانينات في الولايات المتحدة الأمريكية سنة **1985**م مع **"ليتش"** كما ذكرنا سابقًا في مؤلفاته ومقالاته، بعدما استفاد النقد الثقافي من البنيوية اللّسانية، ونقد الجنوسة والأنثروبولوجيا

والتفكيكية، ونقد ما بعد الحداثة والحركة النسوية وأطروحات ما بعد الاستعمارية. وتقويم "ليتش" كان منصبًّا على ثلاثة نقاد أمريكين _على حد قول جميل الحمداوي_ وهم: واين بوث صاحب التعدّدية الليبرالية وروبرت شولز صاحب البنيوية، وهيليز ميلر ممثل التفكيكية (جميل ، 2012).

2. النقد الثقافي ومفهومه عند الناقد السعودي عبد الله الغذامي:

2-1/-بداياته:

نادى الناقد "عبد الله الغذامي" في أغلب مؤلفاته وخصوصًا المتأخّرة، بضرورة تجاوز النقد الأدبي الّذي بلغ سن اليأس، وأكل منه الدهر وشرب، و ضرورة البحث عن طرق وآليات أخرى تكشف عن وسائل الثقافة في تمرير أنساقها عبر الخطاب؛ فمثلًا إدريس الجابري يرى أنّه:" يمكننا أن ندّعي، وباطمئنان أنّ أوّل خطوة عملية وفعلية في درب النقد الثقافي تلك التي دشّنها –الغذامي_ بقراءته لأدب حمزة شحاته في كتابه "الخطيئة والتكفير"، وعليه فمقاربة الغذامي لأدب حمزة شحاته ليست مقاربة ناقد أدبي، يتصيّد الصور البلاغية، أو يتعقّب مواطن الفتح اللّغوي والمجازي والإيقاعي، وإنّما مقاربته مقاربة ناقد ثقافي، يكرّس علاقات مختلّة بين الرجل والمرأة" (إدريس ، 2002، صفحة 33)

كذلك بعد صدور كتابيه " المرأة واللغة" حاول فيهما الدفاع عن المرأة الأديبة من خلال دراسته المهمّش من خطابها وتحليله مقارنًا بذلك مع الخطاب الذكوري دون وجود تبني صريح للنقد الثقافي بديلًا للنقد الأدبي. .

كما شُبّهت تجربته النقدية التجديدية بدمية " الماتروشكا" الروسية، المركّبة من دمى مختلفة الأحجام داخل دمية كبيرة، نفس الشيء انطلاقًا من كتابه الأوّل "الخطيئة والتكفير" إلى آخر كتاب لديه ترتبط بالمحاولة التجديدية في الخطاب النقدي. لكن المحاولة الصّريحة التي تبنّت هذا النقد الثقافي لدى الغذامي؛ مفهومًا و ووظيفةً وإجراءً هو كتاب "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافة العربية" الذي ذكرناه سلفًا، معلنًا فيه عن مشروعه الجديد في تحليله لنصوص شعرية مختارة قديمة وحديثة، ونادى إلى ضرورة التخلّص النقد الأدبي وتحطيم معالمه السائدة ومدارسه القديمة، الذي " لم يعد قادرًا _في نظره_ على تحقيق متطلّبات المتغيّر المعرفي والثقافي الضخم الّذي نشهده الآن عالميًا وعربيًا" (الرباعي، 2005، صفحة 202)، هذا الكتاب كان فتحًا جديدًا في الميدان النقد العربي وتطبيقًا لمقولاته؛ تحوّلت النظرة إلى النصّ الأدبي باعتباره ممارسة ثقافية بَحَث داخله النقاد عن الأنساق الثقافية المضمرة.

وأيضًا في مقالاته التي نصّ فيها عن أنّ النقد الثقافي هو البديل عن النقد الأدبي كمقاله الموسوم بـ "إعلان موت النقد الأدبي" المنشور في الكتاب المشترك بينه وبين " عبد النبي اصطيف" المعنون بـ ‘‘نقد ثقافي أم نقد أدبي ."

كما يتميّز النقد الثقافي عن النقد الأدبي في نظره كونه يحقّق أربع نقلات إجرائية في المصطلح ذاته، وفي المفهوم، والوظيفة، والتطبيق _ وهذا ما سنحدّده لاحقًا_ واللافت للنظر في هذه النقلة الاصطلاحية هو إدخال الوظيفة النسقية إضافة إلى الوظائف الستّ للّغة الّتي حدّدها "رومان ياكبسون" في الوظيفة النفعية والتعبيرية والمرجعية والمعجمية والتنبيهية والشّاعرية "فإضافة الوظيفة النسقية يسمح لنا بتوجيه النظر نحو الأبعاد النسقية التي تتحكّم في خطاباتنا، والكشف عن هذه الوظيفة هو مبدأ أساس من مبادئ النقد الثقافي بل منطلقه النقدي وأساسه المنهجي، ويتحوّل النصّ بعدها من مجرّد تجلٍّ أدبي إلى حادثة ثقافية" (نوال ، 2015، صفحة 306).

ب/– مفهومه وغاياته:

يعرّف "عبد الله الغذامي" النقد الثقافي بقوله أنّه: " فرع من فروع النقد النصوص العام وهو أحد علوم اللّغة، وحقول الألسنية، بمعنى أنّه ينتقد النصوص المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكلّ تجلّياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي، وغير مؤسّساتي ودور كلّ منهما في حساب المتلقي الثقافي الجمعي، وعليه؛ فالنقد الثقافي غير معني بكشف الجمالي فحسب بل كشف المضمر تحت أقنعة البلاغي وكشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي والحسّ النقدي" (الغذامي، 2005، الصفحات 83-84).

ويعرّفها كلّ من "سعد البازعي" و"ميجان الرويلي" في كتابهما" دليل الناقد الأدبي" وهما من المشجّعين لهذا النقد بأنّه:" نشاط فكري يتّخذ من الثقافة بشموليتها موضوعًا لبحثه وتفكيره، ويعبّر عن مواقف إزاء تطوّراتها وسماتها" (سعد و ميجان ، 2002، صفحة 305).

بمعنى أنّ الناقد في بداية قراءته للنصوص الأدبية والفنية؛ يتناولها باعتبارها منجزًا ثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا قبل أن تكون علامة جمالية، من أجل الكشف عن العيوب النسقية الموجودة في الثقافة والسلوك بالاستعانة بالتشريح النصي الّذي يقوم على التقويض والتركيب وبالتالي يهدف هذا النقد إلى "كشف عن الأنساق وتعرية الخطابات المؤسّساتية، والتعرّف على أساليبها في ترسيخ هيمنتها وفرض شروطها على الذائقة الحضارية للأمد" (جميل ، 2012)

وهذا ما يؤكّده التشبيه الذي وضعه "الغذامي" بين مهمة النقد الثقافي بمهمة علم العلل عند أهل الحديث، الّذي يختصّ في البحث عن عيوب الخطاب، ويكشف عن سقطات في المتن والسند، مما يجعله ممارسة نقدية متطوّرة ودقيقة وصارمة، وهذا البحث _عن علل الخطاب_ يتطلّب منهجًا قادرًا على تشريع النصوص واستخراج الأنساق الثقافية المضمرة ورصد حركتها، وكذا هي الجماليات البلاغية التي تضمر أضرارها وقبحياتها والحاجة إلى كشف ذلك يصبح همًا نقديًا ومشروعًا وضروريًا (جميل ، 2012).

كما نشير إلى أنّ النقد _من خلال عمله بهذه الطريقة_ لا يشترط وجود نصّ أفضل من نصّ بل كلّ النصوص تخضع للنقد الثقافي بجميع تعدّداتها: الأدبية، الشّعبية، العامية.....

في مقدمة كتابه "النقد الثقافي" يطرح عدّة تساؤلات من بينها" هل جنى الشعر العربي على الشخصية العربية؟ وهل هناك علاقة بين اختراع الفحل الشعري وصناعة الطاغية؟ وهل هناك أنساق ثقافية تسرّبت من الشّعر وبالشعر لتؤسّس لسلوك غير إنساني وغير ديمقراطي..؟ (الغذامي، 2005، صفحة 07)

نلاحظ أنّ هذه الإشكاليات كشفت عن غاياته وغايات نشاطه النقدي الثقافي؛ فهو من الوهلة الأولى حاول اتّهام الشّعر العربي وحمّله مسؤولية غرس القيم السلبية في الشّخصية العربية من القديم إلى يومنا هذا نظرًا لاحتوائه على عيوبٍ نسقية خطيرة جدًّا؛ وأخذ نماذج شعرية تطبيقية في تحليله الثقافي من أعصرٍ مختلفة ليبرهن على نظريته؛ من أبي تمّام والمتنبي وأدونيس ونزار القباني ورأى أنّها "...أمثلة على الجمالي الشّعري، وهي أيضًا أمثلة على الخلل النسقي." (الغذامي، 2005، صفحة 08)

فالشعر العربي _على حدّ قوله_ سعى دومًا إلى ترسيخ " ...شخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع من جهة، وشخصية الطفل المتوحّد فحل الفحول ذي الأنا المتضخّمة النافية للآخر من جهة ثانية، وهي من السمات المترسّخة في الخطاب الشّعري، ومنه تسرّبت إلى الخطابات الأخرى.

ومن ثم صارت نموذجًا سلوكيا ثقافيًّا يُعاد انتاجه بما أنّه نسق منغرس في الوجدان الثقافي، مما ربى صورة الطاغية الأوحد(فحل الفحول)." (الغذامي، 2005، الصفحات 93-94)

وغايته من هذا النقد الثقافي كما يرى في مقدمة كتابه " لقد آن الأوان لكي نبحث عن العيوب النسقية للشخصية العربية المتشعرنة والّتي يحملها ديوان العرب، وتتجلّى في سلوكنا الاجتماعي والثقافي بعامة. لقد أدى النقد الأدبي دورًا هامًا في الوقوف على جماليات النصوص، وفي تدريبنا على تذوّق الجمالي وتقبّل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه، أوقع نفسه وأوقعنا في حالة العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي." (الغذامي، 2005، صفحة 08)

كما رأى أنّ أخطر أنواع الشّعر هو شعر المديح _المبني على التّضخيم_ الّذي يقوم على الكذب والنفاق مما أدى في رأيه إلى سقوط الشّعر وبروز الشاعر وتصوير الحقّ بصورة الباطل والعكس، فهو مثلًا يعترف بوجود صفات أخلاقية راقية في الشّعر العربي لا بدّ من تمثّلها لكن من صفات الضرّر تمكن في التكوين السلبي للشخصية الثقافية يقول:" لنتصوّر الصور الثقافية التالية:

أ-شخصية الشحاذ البليغ(الشاعر المدّاح)

ب-شخصية المنافق المثقّف(الشاعر المدّاح أيضًا)

جـ-شخصية الطاغية(الأنا الفحولية)

د-شخصية الشرير المرعب الّذي عداوته بئس المقتنى(الشّاعر الهجّاء)." (الغذامي، 2005، صفحة صص99/98)

فهو يرجع ظهور هذه الصفات في الشخصية العربية عمومًا إلى الشعرين المدح/والهجاء؛ فتحوّل الفحل الشّعري إلى فحل ثقافي بعد تراكمها وتوالدها وهذا ما نلحظه في جميع الخطابات والسلوكيات المجتمعية والسياسية ...ونشوء شخصية الطاغية كان مرتبطًا بهذا الصنم البلاغي المتعبّد وصفاته المتعالية المنزّهة والخالية من العيوب على حدّ تعبيره.

ركّز في بحثه التطبيقي على بعض الشّعراء العباسيين من بينهم المتنبّي أو (الأبّ النسقي)الذي رآه مفرطًا في ذاتيته وفي أناه الطاغية (مستكبرًا) في بيته الّذي يقول:

أنا الّذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أو في قول جرير:

أنا الدهر يفنى والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله

فالأنساق الثقافية المضمرة حسب مقولته السّابقة التي توارثها الناس عن الشّعر بعد أن تزيّف على أيدي المادحين: التسلّط على الناس، الاستهزاء بهم، النظم بالمقابل المادي....انعكست كذلك على الشّعراء المعاصرين_ على حدّ قول الغذامي_ كنزار القباني مثلًا في ديوانه الرسم بالكلمات الّذي يقول في مقطع منها (الغذامي، 2005، صفحة 251):

مارست ألف عبادة وعبادة

فوجدت أفضلها عبادة ذاتي

فيرى الغذامي أنّ التعالي والاستكبار_ بالإضافة إلى وجود صفة الانكسار_ طاغية في شعره " وبما أنّ نزار فحل يرث أسلافه من الفحول فإنّه سيضع نفسه موضع في التعالي، وموضع الغلو الفاحش أليس أن يقول إنّ الشاعر هو الإنسان الإله، وأنّه يحمل بين رئتيه قلب الله..." (الغذامي، 2005، صفحة ص250) وهذا ما جعله يقول في كتابه "ماهو الشّعر؟" أنا مؤسّس أوّل جمهورية شعرية، أكثر مواطنيها من النساء." هذه الجمهورية التي أسّسها الفحل التي تشترط الرعايا من النساء التي تخضع للاستفحال على مدى تجربته الشّعرية كاملة.

والسؤال الذي نطرحه نحن:

- إذا ابتعدنا عن الشّعر نهائيًا هل ستستقيم الذّهنية العربية؟ هل الشّعر وحده _على حسب تعميم الغذامي_ هو السبيل الوحيد والأوحد الّذي كوّن شخصية الطاغية والفحل المستعلي وكلّ القبحيات التي ذكرها؟

نظن أنّ الغذامي وقع في التعميم من خلال انتقائه لبعض النماذج الشعرية ووقع في الجدل من خلال أحكامه المطلقة وتعميماته من أجل برهنة طروحاته الّتي مسّت بمصدر هوياتي مهمّ في الثّقافة العربية ووصل الأمر به إلى أحكام جزافية، نفس ما وقع فيه طه حسين في كتابه المثير للجدل "في الشّعر الجاهلي".

كما نرى أنّ فكرة رفض النقد الأدبي تمامًا من قبله من جهة، وهجومه اللاّذع على الشّعر العربي باعتباره ديوان العرب ويمثّل هويتهم الثقافية من جهة ثانية بكلّ هذه السهولة وهذه السرعة هو أمر غير مقبول؛ فالنقد

الأدبي وبعد ردح من الزمن منذ النقد الأرسطي وصولًا إلى النقد التطبيقي فالمنهجي اليوم وما قدمته المدارس النقدية _الغربية والعربية_ بجميع اتّجاهاتها وفلسفتها وايديولوجيتها في سبيل خدمة الأدب أُلغي بدون سابق إنذار بحجة أنّها تهتم بالجمالية على حساب الأنساق الثقافية المضمرة. نحن لسنا ضدّ النقد الثقافي _ بل بالعكس_ لكنّنا نراه جاء مكمّلًا للنقد الأدبي وليس بديلًا له كما يرى الغذامي.

إلى جانب وجود الكثير من الأخطاء التي وقع فيها "عبد الله الغذامي" والّتي سنتحدث عنها في العنصر الأخير من المقال، من أعوصها _ كما نعتقد كذلك_ حسب الناقد محمد عبد المطلّب أنّه بدأ في قراءته للتراث بالرفض وليس بحميمية، فقدم منهجًا مختلًا لأنّه يبدأ من الثقافة ليصل إلى النص، ومن المفروض أن يحدث العكس؛ أي يبدأ من النص ليصل إلى الثقافة لأنّه يبحث عن النسق الثقافي للنصّ، ودائمًا ما اعتمد "الغذامي" مقولة (قراءة ثقافية) وليس (نقدًا ثقافيًا) لأنّ النقد سيقضي إصدار الحكم، والحكم على النصّ هو حكم على الثقافة كلّها. أما القراءة فهي توضيح دون الحكم (نوال ، 2015، صفحة 311).

3. كيف يعمل النقد الثقافي عامةً في تحليله للنصوص/مقوّماته؟

حدّد الباحث "جميل حمداوي" في مقاله "النقد الثقافي بين المطرقة والسندان" منهج عمل النقد الثقافي منطلقًا من الكتب العربية التي اختصت بالنقد الثقافي، أجملها في العناصر التالية:

1) طرح أسئلة ثقافية جديدة تتّصف بالتركيز والتدقيق، سؤال ينوب عنه سؤال جديد، كسؤال النسق بدلًا عن سؤال النصّ/وسؤال المضمر بدلاً من سؤال الدال/سؤال الاستهلاك الجماهيري بدلا عن سؤال النخبة المبدعة / وسؤال التأثير الذي ينصب على ثنائية المركز والتهميش أو ثنائية المؤسسة والمهمل، أو سؤال العمومي والخصوصي.
2) اعتبار الخطاب الأدبي/الفنّي/الجمالي حاملًا للعلامات الثقافية التي يتعامل معها الناقد فهمًا وتفسيرًا وتأويلًا للوصول إلى الأنساق الثقافية المضمرة غير واعية.
3) ويكون ذلك من خلال رصد حيل الثقافة التي تمرّر عبر أنساق ذلك الخطاب الجمالي والأدبي.
4) التركيز على الأنساق الثقافية المضمرة، والدلالات النسقية الثقافية، وآليات البلاغة الثقافية من مجاز كلي وتورية نسقية.
5) وبالتالي إن وظيفة النص ليست الوظيفة الأدبية أو الشّعرية أو الجمالية كما يقول رومان جاكبسون في نظامه التواصلي، بل هي الوظيفة النسقية الثقافية.
6) عدم إهمال الجمالي لأنّها جزء لا يتجزأ من الثقافة يضاف إلى العناصر الأخرى للخطاب المنقود (جميل ، 2012).
7) التركيز على الثقافي بدل من الاهتمام بالدوال اللّغوية ذات الطبيعة الحرفية أو التضمينية على حد قول جميل حمداوي، استدل في ذلك بقول "الغذامي" :" أنّ كبار المبدعين العرب من أمثال أبي تمام والمتنبي وأدونيس، نجد

في نصوصهم أنساق مضمرة غير واعية تنبئ عن وجود منظومة طبقية/فحولية/رجعية/استبدادية، بدون وعي منهم، ولا في وعي أي منا، ونحن وهم ضحايا نتائج هذه الأنساق اللاإنسانية والا حضارية، التي ظلّت تتسرّب في ضميرنا الثقافي، دون كشف أو ملاحظة، حتى نجد تماثلًا مخيفًا بين الفحل الشّعري والطاغية السّياسي والاجتماعي، مما هو لبّ النسق وبؤرته غير الملحوظة_يضيف "الغذامي" قائلاً_ لقد آن الأوان لممارستنا النقدية باتّجاه نقد الخطاب الإبداعي، من بوابة النقد الثقافي لتكشف ما يحمله الإبداع، لا من جماليات نسلم بها، ولكن من قبحيات نسقية لم ننتبه لها" (جميل ، 2012).

8) اكتشاف التأثيرات التي تخلّفها الأنساق المضمرة في الوسط الثقافي بصفة خاصة والوسط الجماهري بصفة عامة. أي: الانتقال من ثقافة النخبة إلى ثقافة الجماهير.

9) الانتقال من مرحلتي: الفهم والشرح إلى مرحلة التأويل الثقافي.

أما عن خطوات الناقد السعودي" عبد الله الغذامي" والتي تمثّلت في الخطوات المنهجية التالية التي حصرها جميل حمداوي في المقال المذكور أعلاه (جميل ، 2012):

- **مرحلة المناص الثقافي**: المقصود بها العتبات الثقافية من مؤلف، وعنوان ومقدمة، وإهداءات، وسياق وهوامش، ومقتبسات، وصور، وأيقونات، ووسائط إعلامية... وكل ذلك من أجل استخلاص الأبعاد الثقافية في هذه العتبات الفوقية والمحيطة.
- **مرحلة التشريح الداخلي**: المقصود بها عمليتي التفكيك جماليًا / بنيويًا / سيميائيًا / أسلوبيًا بتحليل النص، والتركيب الّذي يتجلّى في فهم ما هو ثقافي.
- **مرحلة الرصد الثقافي**: **من** خلال تتبّع التمظهرات الثقافية، واستخلاص الأنساق الثقافية المضمرة، وذلك بالوقوف عند الجمل، والمجازات، والكنايات، والصور، والدلالات، والأنساق الثقافية المضمرة.
- **مرحلة التأويل الثقافي**: الاستعانة بالعلوم الإنسانية كالتاريخ، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم الثقافة، وعلم النفس، والنقد الأدبي في استجلاء الأبعاد الثقافية، وفضح الإيديولوجيات، ونقد الأوهام والأساطير المؤسساتية، وذلك في شكل أحكام وخلاصات واستنتاجات ثقافية.

4. المفاهيم الأساسية للنقد الثقافي ومرتكزاته عند عبد الله الغذامي:

في الفصل الثاني من كتاب "عبد الله الغذامي" من كتابه، عنونه بـ:" النقد الثقافي/ النظرية والمنهج"، وضع مجموعة من المبادئ والمفاهيم والثوابت النظرية التي بُني عليها النقد الثقافي، وظيفتها فهم النص وتأويله، وتتمثل في بالترتيب:

أ- المجاز والمجاز الكلّي:

ويقصد بالمجاز الكلّي: القناع الذي تضعه اللّغة من أجل تمرير أنساقها الثقافية دون وعي؛ فالنقد الثقافي يسعى إلى كشف المجازات الثقافية الكبرى متجاوزًا المجاز البلاغي والأدبي المفرد، وبذلك يتحوّل الخطاب إلى مضمرات ثقافية مجازية.

ويعني هذا أن النص أو الخطاب الثقافي يتحوّل إلى استعارات ومجازات كلّية تحمل في طياتها مدلولات ومقصديات ثقافية مباشرة وغير مباشرة.

ب– التورية الثقافية:

ويقصد بها كشف المضمر الثقافي القابع بين ثنايا النص، يعرّفها الغذامي:"... مصطلح دقيق ومحكم، وهو في المعهود منه يعني وجود معنيين أحدهما قريب وآخر بعيد وكشفه هو لعبة بلاغية منضبطة. ونحن هنا نوسع من مجال التورية لا لتكون بهذا المعنى البلاغي المحدّد، ولكنّنا نقول بالتورية الثقافية، أي: إنّ الخطاب يحمل نسقين، لا معنيين واحد من هذين النسقين واع والآخر مضمر" (الغذامي، 2005، صفحة 180).

وكما يرى الناقد "جميل حمداوي" جعل للتورية مفهومًا إجرائيًا جديدًا، من أجل تطبيقه على النصوص في ضوء المقاربة الثقافية.

ت– الدلالة النسقية:

يستند النقد الثقافي إلى ثلاث دلالات: الدلالة المباشرة الحرفية، والدلالة الإيحائية المجازية الرمزية، والدلالة النسقية الثقافية، ويرى "الغذامي" أنّ الدلالات اللّغوية لم تعد كافية لتعرية المخزون الدلالي للّغة، وأنّ الأدب والنقد وصلا إلى مفهوم الدلالة الضمنية لكنّها غير كافية والحاجة إلى الدلالة النسقية ضرورة ملحّة تضاف إلى الدلالات الثلاث.

كما يفرّق بين النوعين الأوليين_ الصريحة/الضمنية_ كونهما ضمن حدود الوعي المباشر أما الدلالة النسقية فـ "هي في المضمر وليست في الوعي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدقّقة تأخذ بمبدإ النقد الثقافي لكي تكتشفها، ولكي تكتمل منظومة النظر والإجراء" (جميل ، 2012، صفحة 178). والمهم في الدلالات الثلاث هي الدلالة الثقافية الرمزية التي تستبطن المضمر فتصبح أهم من الدلالة الحرفية والجمالية كما يرى حمداوي.

ث– الجملة الثقافية:

يميّز النقد الثقافي منهجيًا بين ثلاث جمل رئيسة:

الجملة النحوية ذات المدلول التداولي/ الجملة الأدبية ذات المدلول الضمني والمجازي والإحيائي، والجملة الثقافية التي هي "حصيلة الناتج الدلالي للمعطى النسقي، وكشفها يأتي عبر العنصر النسقي في الرسالة، ثمّ عبر تصوّر مقولة الدلالة النسقية، وهذه الدلالة سوف تتجلّى وتتمثّل عبر الجملة الثقافية.

والجملة الثقافية ليست عددًا كميًا؛ إذ قد نجد جملة ثقافية واحدة في مقابل ألف جملة نحوية. أي: أنّ الجملة الثقافية هي دلالة اكتنازية وتعبير غير مكثّف" (الغذامي، 2005، صفحة 180).

ج– المؤلف المزدوج:

ميّز الغذامي بين نوعين من المؤلفين:

- **المؤلف الجمالي والأدبي** الذي ينتج أنساقًا أدبية جمالية فنية مباشرة (ظاهرة) أو غير مباشرة، وذلك عن طريق الرمزية والإيحائية.

❖ **المبدع الثقافي** الذي يتمثل في الثقافة نفسها التي تتوارى وراء الظاهر في شكل أنساق مضمرة غير واعية. هذا المؤلف الذي تريده ــ المقاربة الثقافية ــ يمزج بين النوعين.

واعتبر الثقافة مؤلفا فاعلًا ومؤثّرًا، لأنّها تشترك بغرس أنساقها من تحت نظر المؤلف المعلن الذي يكون في حالة إبداع جمالي كامل، فتكون الثقافة تعمل عمل المؤلف الثاني ولا نستطيع الكشف عنها إلا عن طريق النقد الثقافي وأدواته.

ح– وظيفة النقد الثقافي (من نقد النصوص إلى نقد الأنساق)

يرى الغذامي أنّ وظيفة النقد الثقافي لا تكمن في نقد الثقافة أو مجرّد دراستها ورصد تجلياتها وظواهرها (عملية استهلاك) بل يكون نقدًا للمتن الثقافي والحيل النسقية التي تتوسل بها الثقافة لتعزيز قيمها الدلالية، ومن مظاهر هذه الحيل ذكرها الغذامي: تغييب العقل وتغليب للوجدان، وهذه أخطر الحيل البلاغية والشعرية، وجرى عبرها تمرير أشياء كثيرة لمصلحة التفكير اللاعقلاني في ثقافتنا. وهي تغليب الجانب الانفعالي العاطفي.

المقولتان: أعذب الشّعر أكذبه ومقولة المبالغة وما أحدثنه من عمليات عزل بين اللغة والتفكير، وإعطاء الجمالي قيمة تتعالى على العقلي والفكري... بل تجاوز الشعر. وصبغ الشخصية الثقافية للأمة التي ظللنا نصفها ونصف لغتها بالشاعرة وبالشاعرية. وتركنا الباقي على النسق كي يفعل فعلته فينا وفي ضميرنا الحضاري. (الغذامي، 2005، صفحة 83)

ونشير إلى أنّ الناقد " عبد الله الغذامي" تعرّض إلى الكثير من الانتقادات في تناوله لهذه المصطلحات ومفاهيمه الجديدة نظرًا لضبابية مشروعه وغموض تطبيقاته وآلياته وخاصة مفهوم المؤسساتية عنده من خلال جعل مصطلح الأدبية مفهومًا مؤسساتيًا مهيمنًا تارة، ويجعلها خارج التصوّر المؤسّساتي مرةً أخرى، سنتفصّل فيها في العنصر الأخير من المداخلة.

كذلك أمر نراه في غاية الأهمية والمتمثّل في عدم تحديد هذا الناقد لمصطلح النسق المضمر في دعوته للنقد الثقافي، هذا المفهوم المركزي الذي ورّطه على حدّ قول زميله: عبد النبي اصطيف، لأنّ هذا المصطلح أخذ العديد من المفاهيم: المكبوت النسقي/ المكوّن النسقي/ الحس النسقي/ العيب النسقي/ الدلالة النسقية/ النمط النسقي المتمكّن... " ثم يتساءل كيف يمكن للقارئ أن يتابع محاجة الغذامي وهو يصول ويجول في دفاعه المستميت عن هذا المجهول أو النسق دون أن يسعفه ولو بتعريف بسيط ييسر عليه صحبته في كفاحه من أجل النقد الثقافي." (عبد النبي ، 2004، صفحة 189).

5. الانتقادات التي وُجهت لعبد الله الغذامي وتصوّره النقدي الثقافي وحججهم في ذلك:

صحيح أنّ هناك الكثير من الدارسين العرب من تأثّروا بأطروحات النقد الثقافي الغربي وخاصة بفكر "الغذامي" وتطبيقه له، في المقابل هناك من رفضوا هذه الأطروحات "فقد اعتبروه النقد الثقافي ــ مشروعًا نقديًا يمثّل مجرّد افتتان بمشروع نقدي غربي تجاوزته الأحداث داخل الثقافة التي أنتجته (عبد العزيز ، 2003، صفحة 351).

من بين الانتقادات التي وُجهت لمشروع عبد الله الغذامي سنجملها في:

- ❖ أنّ النقد الثقافي يهدف إلى تسييس النقد الأدبي؛ فهو تحوّل إلى أحكام سياسية من خلال اهتمامه بالأنساق الثقافية في ضوء مقاربة سياسية وأيديولوجية في قراءته للنصوص الأدبية وهذا مايؤكده "الغذامي" بقوله: " إنّ السياسي لم يصنع نفسه، وإنّما هو وليد لثقافة نسقية كما أنّ الشاعر لم يصنع نفسه وإنّما هو وليد لثقافة، والنسق حينئذ هو مضمر ثقافي لا بدّ من كشفه... وجدنا الحداثة العربية ضحية نسقية" (الغذامي، 2005، صفحة 215).
- ❖ من النقاد أيضًا من قالوا أنّ مشروعه النقدي الثقافي حوّل القراءة الثقافية إلى محاكمات أخلاقية بالمعنى الفلسفي، وتراجعت بالنقد إلى النبش في السير والاستدلال بالنصوص على ضعة المتنبي ونرجسية أدونيس، مما يعيد النقد للعمل داخل الحياة الخاصة والتاريخ والوقائع المشكوك بصحتها (بوجلال ، 2016، صفحة 271).
- ❖ يرى الناقد عبد الله إبراهيم أنّه كان معمّمًا في أحكامه من خلال انتقاء جزئيات ويضخّمها ويجعل منها قانونًا يتحكّم في النتائج التي يهدف إليها، هذه الطريقة أدت إلى نتائج خطيرة... فكلما عثر الغذامي على إشارة دالة على الافتخار والفحولة والتعاظم قال (وهذه جملة نسقية ثقافية) (نوال ، 2015، صفحة 305).
- ❖ انتقد أيضًا في رؤيته التي تقول بأنّ النقد الأدبي يختصّ فقط بما هو جمالي وبلاغي، ورُد عليه بأنّ النص الأدبي هو خطاب جمالي قبل أن يكون رسالة ثقافية. وبالتالي لا يمكن أن يكون النقد الثقافي بديلًا عنه.
- ❖ في فكرة شيخوخة البلاغة العربية_ بعلومها الثلاث_ حيث ينطبق هذا الحكم على البلاغة القديمة وليست الجديدة.
- ❖ بعض النقاد العرب ناقشوا قضية تناقض "الغذامي" مع بعض قناعاته النقدية؛ كقناعته بمقولة "موت المؤلف" البارتية التي وضعت حدًا للمناهج السياقية في دراسة الأدب وتجاوزها للعمل الأدبي نفسه. غير أنّه سرعان ما تخلّى عن قناعاته النقدية متطرّقا إلى السلوكيات الخاصة بأصحاب النصوص" إلى سماتهم الشّخصية على طريقة النقد الانطباعي القديم الذي لا يخلو من الأحكام الأخلاقية للناقد، فنراه ينقد أدونيس على سبيل المثال" (نوال ، 2015، صفحة 304).
- ❖ استناد منهجية النقد الثقافي على التأويل الذاتي المرتكز على أطروحات تاريخية أو غيرها قد تكون صحيحة أو خاطئة؛ بمعنى أنّها غير مستندة على حقائق علمية دقيقة اجتماعية، نفسية، جمالية، أو أنثروبولوجية ثقافية (بوجلال ، 2016، صفحة 270).
- ❖ قراءته تعدّ قراءة انتقائية لنماذج من الأنساق الثقافية تصدر عليها أحكامًا واحدة كما هو الحال لشعر الصعاليك والخوارج والشّيعة وغيرها (جميل ، 2012).
- ❖ محاولة الفصل بين ما هو مؤسساتي واجتماعي _ اقتصادي أو إيديولوجي؛ فكيف يمكن قراءة أي نص شعري خارج حدود المحيط الأيديولوجي أو خارج التاريخ (يوسف ، 2010).

- ممارسة "الغذامي" في كتابه "النقد الثقافي" لا يختلف عن "نقد الثقافة" الذي نجده عند الجابري، علي حرب، الطيّب تزيني... في محاولة إجابتهم عن السؤال النهضوي: لماذا تأخّر العرب وتقدّم غيرهم؟ ومحاولته هي مجرّد انتقادات للثقافة العربية نقد الثقافة_ وليس النقد الثقافي للأدب ونقده، ودعا إلى تقويضها كذلك دون معرفة ماهيتها ولا كيف تشكّلت في نشأتها، وماهية عناصرها وجدليتها وحركيّتها.
- استعادة التصوّر الأفلاطوني للشّعر واجترار موقف ابن رشد عن المعرفة الشعرية باعتبارها معرفة شريرة (زرفاوي، 2015، صفحة 195).
- السّمة الغالبة على استدلالاته في البرهنة على آرائه النظري، وغياب التوفيق في ضبط المفاهيم النظرية المشكّلة للمشروع، وبخاصة مسألة فاعلية "النسق: تارة، وخموله تارة ثانية.

6. خاتمة:

وخلاصة القول، لقد قدّم المشروع التنويري لـ "عبد الله الغذامي" للسّاحة النقدية العربيّة قراءة مغايرة للأنساق الثقافية العربية، معتمدًا منهجية الحفر لاستقطاب الأسباب المتعدّدة لرصد الخلل النسقي في تكوين الشّخصية العربية، بتتّبعه نشأة الفحولة من العصر الجاهلي إلى الحداثة العربية من جهة، ومن جهة ثانية قدّم لنا قراءة للنقد في الثقافة العربية الذي وجده نقدًا جماليًا بلاغيا منشغلًا بإبراز الجماليات دون القبحيات _انسابت دون وعي عبر الجمالي مما أفرز لنا ما يسمى بالعمى الثقافي.

للنقد الثقافي رؤية شمولية، فغايته مقاربة النص الأدبي _اعتبره ممارسة ثقافية_ في ضوء منظور ثقافي واسع اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وتاريخيًا ونفسيًا، ورصد الأنساق الثقافية المضمرة وموقعتها في سياقها المرجعي والثقافي والأديولوجي والمؤسّساتي وهذا يحسب له. لكن الجانب السلبي فيه _على حد رؤية جميل حمداوي _أنّه يتعامل مع النصّ تعاملًا ثقافيًا خارجيًا مبتذلاً، على أنّه نص نسقي لا يزخر إلا بالرسائل الثقافية الأيديولوجية ليس فقط. وبهذا يتنافى النقد الثقافي مع خصوصية الأدب وماهيته، ووظيفة النقد الأدبي جملة وتفصيلًا.

بالرغم من الجوانب النقص التي تطرّق إليها المعارضين لمشروع النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي _ ونقتنع نحن ببعضها خصوصًا فيما يتعلّق بالتناقضات الموجودة بين كتبه الأولى والأخيرة_ لكنّنا نرى أنّ مستقبل هذا النقد كموضوع جديد ومنهج مقارباتي جديد للنصوص الأدبية _ إن أُعيد النظر في مصطلحاته ومهامه_ سيلقى قبولًا كبيرًا في السّاحة العربية لاتّصافه بالعمق وجدية الطرح، وبالشمولية وهدمه لمناطق التخوم بين العلوم والحقول المجاورة في ثقافتنا العربية، كعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلم العلامات والإشهارات والموضة..... كل هذه الموضوعات الجديدة ستسهم في تطوير نظرية الأدب .

. قائمة المراجع:

اصطيف عبد النبي . (2004). *من يخاف عبد الله الغذامي، نقد ثقافي أم نقد أدبي حوارات لقرن جديد*. بيروت: دار الفكر المعاصر.

البازعي سعد ، و الرويلي ميجان . (2002). *دليل الناقد الأدبي*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

الجبري إدريس . (2002). الإمكانات والعوائق في المشاكلة والاختلاف. *مجلة كتاب الرياض*.

الحمداوي جميل . (01، 2012). *النقد الثقافي بين المطرقة والسندان*. تاريخ الاسترداد 15 03، 2022، من منتدى منبر حرّ للثقافة والفكر والأدب: https://www.diwanalarab.com/%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%82%D9%80%D9%80%D9%80%D9%80%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D9%8A

بن صالح نوال . (2015). النقد الثقافي في الخطاب النقدي المعاصر. *مجلة المخبر*(العدد 11).

بوتومور توم . (2004). *مدرسة فرانكفورت* (المجلد 02). (هجرس سعد ، المترجمون) ليبيا: دار الكتب الوطنية.

حمودة عبد العزيز . (2003). *الخروج من التيه، سلسلة عالم المعرفة*. الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب.

رفيق رضا صيداوي. (12 03، 2007). *النقد الثقافي للغذامي: بين التنظير والممارسة*. تاريخ الاسترداد 15 04، 2022، من الجزيرة الثقافية: http://www.al-jazirah.com/culture/12032007/speuss24.htm

عبد القادر الرباعي. (01، 2005). ثقافة النقد ونقد الثقافة قراءة في تحوّلات النقد الثقافي. *مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة للفنون والآداب*(العدد 33).

عبد الله الغذامي. (2005). *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية* (المجلد ط3). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

عبد الله الأنصاري يوسف . (10، 2010). *لنقد ثقافي وأسئلة المتلقي، جامعة أم القرى*. تاريخ الاسترداد 16 03، 2022، من ADAB: https://adab.arabepro.com/t251-topic

عصفور جابر . (1997). *آفاق العصر*. القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب.

عمر زرفاوي. (14 06، 2015). النقد الثقافي باعتباره طاغية، قراءة في ميتافيزيقا النقد عند عبد الله الغذامي. *مجلة كلية الآداب واللّغات*.

نادية بوجلال . (06، 2016). عبد الله الغذامي من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي. *مجلة دراسات*(العدد 04).